الفصل الأول

الجزيرة العربية فى الجاهلية

الماء عنصر الحياة الأساسى، الذى بدونه لا تكون حياة على سطح الأرض، فعلى الماء يعتمد الاستقرار والعمران، وعلى أساسه يقوم النشاط الاقتصادى، وتتوقف حياة وتطور وتوسع أى مدينة أو قرية على كمية الماء الذى يتوفر لها. وتكون هذه العلاقة بأوضح صورها فى الأقاليم الصحراوية أفقر جهات العالم بالموارد المائية، وبالتالى أفقرها فى عدد السكان وفى مجالات الإنتاج، وكانت مدنها وقراها محدودة العدد صغيرة المساحة ضامرة.

وشبه جزيرة العرب رغم أنها أرض واسعة جدا مساحتها ثلاثة ملايين كيلو متر مربع فإنها فقيرة جدا بالموارد المائية، وسطحها شديد التفاوت فالقسم الأعظم منه بادية أى أرض تصلح للزراعة، ولكن لا ماء فيها وإن كان يتخللها واحات ينبت فيها الزرع والنخيل. وفى البوادى جواء (جمع جو)، والجو والجوة منخفض من الأرض تتجمع فيه مياه المطر أو تتسرب إليه المياه فتبقى مدة طويلة فينبت فيه عشب. والجواء المشهورة الكبيرة فى شبه جزيرة العرب أربعة عشر موضعا أعظمها اليمامة. أما الجواء الصغيرة فيبدو أنها كثيرة جدا.

وفى الطرف الجنوبى الغربى من مستطيل شبه جزيرة العرب جبال هى جزء من الكتلة الصخرية فى شرقى أفريقية (فى الحبشة). هذه الجبال تتفرع فيذهب فرع منها شمالا على طول الساحل الغربى حتى يتصل بجبال الشام. هذا الفرع يسمى الحجاز لأن يحجز (معترض) بين تهامة (الساحل المنخفض) وبين نجد. وليس فى هذا الفرع قمم عالية.

وأما الفرع الثانى شرقا فيمتد شرقا ينخفض فى أفناء ذلك كثيرا ثم يعود فيرتفع فى عمان حيث يبدو كأنه يتصل بجبال الأهواز فى فارس. فى هذه السلسلة قمتان عاليتان إحداهما عند صنعاء عاصمة اليمن وارتفاعها نحو ٣٢٠٠ متر والثانية فى الجبل الأخضر فى عمان وارتفاعها نحو ٣٥٠ مترا.

وفى شبه جزيرة العرب مرتفعات أشهرها نجد، والنجد فى القاموس ما أشرف أو ارتفع من الأرض، ويبلغ علو نجد (وهو الهضبة الوسطى فى شبه الجزيرة) معدلا وهو ٧٥٠ مترا

فوق سطح البحر وإلى الشمال الشرقى من نجد (بين بادية الشام ونجد وشمال الحجاز) صحراء النفوذ أو النفوذ والتى تزيد مساحتها على مائة ألف كيلو متر مربع.

أما صحراء الدهناء فتبدأ على هيئة ممر ضيق فى جنوب النفود ثم يسير فى قوس كبير غرب نجد حتى يتسع فى الجنوب اتساعا كبيرا جدا، من شرق اليمن إلى عمان حيث يعرف باسم الربع الخالى.

ومناخ شبه جزيرة العرب متفاوت جدا، ولكن الغالب عليه أنه قارى صحراوى يميل إلى الجفاف كما تميل الحرارة فيه إلى الاشتداد. وهذا المناخ الصحراوى يغلب على المدن أيضا. ثم إن تفاوت الحرارة بين الليل والنهار فى المكان الواحد أيضا كثير، وهذا من خصائص المناخ القارى، فهى فى نجد مثلا قد قيست مرة فوجدت تتراوح بين ٥٠ درجة فوق الصفر و٩ درجات تحت الصفر بالميزان المئوى.

والمطر فى شبه جزيرة العرب قليل جدا (باعتباره المصدر الرئيسى لجميع الموارد المائية (وبالإضافة إلى ذلك فإن تلك الأمطار القليلة لا يستفاد من مائها كله، بل إن قسما كبيرا منه يضيع بسبب التبخر الشديد الذى يتبع عملية السقوط مباشرة حيث يقدر أن نسبة ما يتبخر من مياه الأمطار أحيانا ٧٠٪.

أما على الساحل الغربى حيث معظم الأرض حرة فإن المطر ينهمر مدرارا فتسيل السيول، من غير أن يتسرب منها شىء كبير إلى باطن الأرض، حتى تصب فى البحر ثم تبدو الأرض وكأن لم يصبها شىء. على أن ثمة بقاعا قليلة تستفيد من المطر كالعقيق فى المدينة وبعض البقاع حول مكة. ولا ريب فى أن الطائف مثلا بلد خصب وخيبر كذلك، ولكن تلك الأماكن الخصيبة قليلة جدا بالإضافة إلى اتساع شبه جزيرة العرب.

أما شأن المطر فى البادية فإنه مختلف قليلا: إذا نزل المطر فى بقعة على غير قياس فإنها تنبت العشب وشيكا. ثم ينمو هذا العشب بسرعة, ثم يصفر ويذوى بسرعة أيضا.

هذه الحال فى البادية هى التى جعلت البدو رحلا: ينزلون فى مكان ريثما ييبس عشبه ويجف ماؤه ثم يتركونه إلى مكان آخر سقط فيه غيث جديد، وقد ساعد هذا بدوره على ألا يرتبط الإنسان العربى بالأرض وبالتالى فهو قابل للهجرة إلى مكان تطيب له فيه الحياة.

لذلك فإن الوطن فى مفهوم البدوى هو القبيلة وليس الأرض.

فلنستمع إلى ميسونة تتحدث عن حياة البداوة وتقارنها بحياة الحضارة أو الحضر:

لبيت تخفــق الأرواح فيــه أحــب إلــى من قصر منيف
وكلــب ينبــح الطراق عنى أحــب إلــى مــن قط ألوف
ولبــس عبــاءة وتقــر عينى أحــب إلى من لبس الشفوف
وخــرق من بنى عمى نحيف أحــب إلــى من علج عنيف
وأصــوات الريــاح بكل فج أحــب إلــى من نقر الدفوف
وأكــل كسيــرة فى قعر بيتى أحــب إلــى من أكل الرغيف
فمــا أبغى سوى وطنى بديلاً وحسبى ذاك من وطن شريف

عموما كان سكان شبه الجزيرة فى وضع اقتصادى سيئ، حيث كانت الأرض الزراعية قليلة ومبعثرة بطريقة لا تمكن السكان من ممارسة الزراعة كعمل ينشط اقتصادهم ويعينهم على الرحلة فى جوانب الأرض المتباعدة إلا فى أماكن قليلة من أنحاء شبه الجزيرة كالطائف والمدينة وخيبر وتيماء وفدك ووادى القرى.

وقد فرضت الصحراء عدم وجود حكومة منظمة تضم أنحاء الجزيرة العربية المترامية الأطراف وتوحيد البلاد تحت سياسة حكيمة تضمن سلامة السكان وتحميهم من الاعتداء عليهم، وتحافظ على أموالهم وممتلكاتهم وتعاقب المجرمين والمعتدين بما يرد عنهم ويوقفهم عند حدهم، لذلك تجمع فى وحدات تقوم على أساس صلة الدم (القبيلة) سميت بأسماء مختلفة.

كذلك لم يكن فى البلاد جيش موحد يدفع عنها من يحاول الاعتداء عليها. كما لم يكن عندهم نظام قضائى يتحاكمون إليه فى نزاعاتهم، ويقضى بينهم فى مشكلاتهم.

وإنما كانت قبيلة، وحدة مستقلة تصرف أمورها بما يتفق ومصالحها وتحدد علاقاتها مع جيرانها بالشكل الذى تراه مناسبا لها.

وشيخ القبيلة هو الرمز الذى يلتفون حوله، ويكون عادة أكبر أفراد القبيلة سنا وأكثرهم مالا وأعظمهم نفوذا، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصى.

على أن هذا لم يمنع أن تقوم فى الجزيرة العربية وحدات سياسية شبه مستقلة، فقد كانت اليمن قبل الإسلام تنقسم إلى محافد جمع محفد، والمحفد يشمل عدة قصور إذ ذاك كالحصن أو القلعة، يحيط به سور، ويقيم فيه شيخ أو أمير، ويعرف صاحب المحفد أو القصر بلفظ «ذو» أى صاحب وكان يضاف هذا اللفظ إلى اسم المحفد فيقال «ذو غمدان»

أى صاحب غمدان. (وذو معين) أى صاحب معين، ومن أشهر المحافد: غمدان وناعط وصرواح وسلحين بمأرب وظفار وبراقش ومعين.

كأن يحدث فى بعض الأحيان أن تجتمع عدة محافد ويتولى شئونها أمير واحد يسمى (قيل) ويطلق على مجموع المحافد ما يلحقها من القرى والمزارع (مخلاف).

كان الأقيال يغزو بعضهم بعضا، ويغير أحدهم على جاره، وقد نجح بعضهم فى مد سلطانهم على جيرانهم، وهؤلاء عرفوا بالملوك وأصبح محفدهم حاضرة لهم، وتوالى الحكم فى أعقابهم، وبهذه الوسيلة قام فى بلاد اليمن قبل الإسلام عدة دول أشهرها ثلاث:

أولا: الدولة المعينية (١٣٠٠ – ٦٥٠ ق . م): لم يرد لتلك الدولة ذكر فى كتب العرب، لكنا وقفنا على أخبارها من النقوش التى كشفت فى جنوب جزيرة العرب، وكذلك مما كتبه مؤرخو اليونان.

ورد فى النقوش المعينية أن الحكم فى هذه الدولة كان ملكيا وراثيا، ينتقل من الأب إلى الابن وقد يشترك الاثنين معا. وقد حقق DS. Muller أسماء ستة وعشرين ملكا من ملوكها. لكنا لا نعرف شيئا مفصلا عن أعمالهم ومدد حكمهم. ويستدل من تلك النقوش أيضا أن نفوذ دولة معين امتد إلى شمال جزيرة العرب.

أقام المعينيون بمنطقة الجوف بين نجران وحضرموت، واتخذوا قرناو عاصمة لهم وكانوا يشتغلون بالتجارة عملا بما تقتضيه طبيعة الإقليم الذى استقر مقامهم به، واقتبسوا الأبجدية الفينيقية لتدوين حساباتهم لسهولة استعمالها، ودونوا بها لغتهم.

ثانيا: دولة سبأ (٩٥٠ – ١١٥ ق . م): أقام السبئيون بجوار المعينيين واختلطوا بهم واقتبسوا لغتهم وعاداتهم ودياناتهم. ولما اشتد ساعدهم قضوا على المعينين وأسسوا دولتهم، واتخذوا فى بادئ أمرهم قلعة صرواح حاضرة لهم.

كانت دولة سبأ ذات نظام ملكى وراثى، ويستدل من مقابلة أسماء ملوك سبأ المدونة على آثار مأرب أن السبئيين تدرجوا فى الحكم من الإمارة البسيطة إلى الملك الواسع.

ثالثا: دولة حمير (١٥ ق . م – ٥٢٥م): كان الحميريون يقيمون فى ريدان التى عرفت أيضا باسم ظفار. ولما تغلبوا على إخوانهم السبئيين صار لقب كبيرهم ملك سبأ وذا ريدان ومنذ ذلك الوقت بدأت دولة حمير الأولى التى ظلت قائمة حتى سنة ٣٠٠م. وكانت عاصمة الأسرة الحميرية ظفار.

أخذت قوة عرب الجنوب فى الضعف خلال عهد الدولة الحميرية الأولى، ذلك أن زمام احتكار التجارة البحرية فى البحر الأحمر أخذ يفلت من بين أيديهم. وقد بدأت أول محاولة لانتزاع سيادة عرب اليمن على البحر الأحمر منذ أعاد بطليموس الثانى فتح القناة التى تصل النيل بذلك البحر.

أما دولة حمير الثانية فتبدأ حوالى سنة ٣٠٠م. حيث أصبح اللقب الملكى فى جنوب جزيرة العرب ملك سبأ وذا ريدان وحضرموت ويمنات وقد لقب بهذا اللقب الجديد شمريرعش (٢٨٠ – ٣٠٠م) وهو من أشهر ملوك حمير. ويروى مؤرخو العرب أنه غزا أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنها وخرب مدينة الصغد وراء نهر جيحون وبنى مدينة هناك عرفت بشمر قند وهى التى تعرف باسم سمرقند.

كانت مدينة حمير موضع تنافس بين كل من الدولة الساسانية فى فارس والدولة الرومانية الشرقية. وقد استخدمت هذه الدولة السلاح الدينى فى بسط سيادتها فنشرت المسيحية فى (بلاد الحبشة) كما أدخلت هذه الديانة إلى بلاد اليمن نفسها، وأصبح فى نجران جالية نصرانية قوية، وكان الروم يرمون من وراء نشر المسيحية فى هذه البلاد أن يكون لهم نفوذ سياسى واقتصادى فيها فصارت تجارتهم تسير بين الخليج الفارسى والبحر الأحمر.

أما الشمال الشرقى للجزيرة العربية، فقد بدأت تفد قبائل من تنوخ ترجع إلى أصل يمنى فى أوائل القرن الثالث الميلادى فاتخذت لها مساكن فى المنطقة الخصبة الواقعة إلى الغرب من الفرات. وقد وافق قدومهم قيام الدولة الساسانية فى فارس، وكان التنوخيون يعيشون فى بداية أمرهم فى خيام، ومن ثم أصبح مخيمهم قاعدة تعرف بالحيرة (من السريانية حر تا أى مخيم)، وتقع على بعد ثلاثة أميال جنوبا من الكوفة.

أما عن سكان الحيرة الأصليين، فكانوا من قبائل شتى من بطون العرب، اعتنقوا النصرانية على مذهب الكنيسة السورية الشرقية التى عرفت فيما بعد بالنسطورية.

ولما قامت الدولة الساسانية فى فارس حاولت طرد العرب من تخوم دولتها لكنها لم تستطع ذلك ورأت من حسن السياسة الانتفاع بهم، فأسست إمارة الحيرة سنة ٢٤٠م، وعينت عمر بن نصر بن ربيعة بن لخم أميرا عليها، وظلت أسرته تتقلد زمام الحكم فيها حتى دخلت حوزة الدولة الإسلامية فى خلافة أبى بكر الصديق.

كانت العلاقة بين دولة فارس وإمارة الحيرة قائمة على أساس أن يقدم عرب الحيرة الطاعة لكسرى فارس وهو يولى عليهم أميرا من بينهم وعليهم أن يصدوا كل مغير يحاول الإغارة على بلاد الفرس من نواحيهم، وفى مقابل ذلك يعفون من دفع الإتاوة.

أما فى شمال الجزيرة العربية فى بادية الشام، فقد هاجرت الأزد من بلاد اليمن بسبب ما حل بسد مأرب من الخراب واستقرت إحدى قبائلها بجوار ماء اسمه غسان بالشام فنسبت إليه. وكانت بادية الشام أرضا عربية من أقدم الأزمنة، فوفد إليها بعض القبائل من البادية، كما هاجر إليه الضجاعمة وهم من ولد سليح بن عمرو بن حلوان بن قضاعة، ونزلوا بالبلقاء وظلوا بها إلى أن قدم عليهم الغساسنة، فطالبهم الضجاعمه بالإتاوة.

كان الروم إذ ذاك لا يهتمون بهجرة هذه القبائل، إنما يوجهون عنايتهم إلى حراسة حدودهم الشرقية، فعهدوا إليها بحراسة تلك الحدود، وأقاموا سلسلة من الحصون والقلاع تأمينا للشام من غارات الفرس.

ظل الغسانيون يؤدون الإتاوة للضجاعمة على كره منهم حتى تغلبوا عليهم وانفردوا بالسلطان، وأنشأوا لأنفسهم دولة فيما هو معروف بالبلقاء وحوران، عرفت بدولة الغساسنة واتخذوا بصرى عاصمة لهم.

لما احتاج الروم إلى معونة الغساسنة ضد الفرس، حالفوهم على أن يمدهم الروم بأربعين ألفا إذا هاجمهم العرب، وأن يمدوا الروم بعشرين ألفا إذا حاربهم الفرس.

رأى الغساسنة تحت تأثير ما بينهم وبين البيزنطيين من علاقات أن يعتنقوا النصرانية، غير أنهم لم يتبعوا المذهب الملكانى – مذهب الدولة الرومانية الشرقية – بل اعتنقوا المسيحية على المذهب المنوفستى السائد فى البلاد السورية.

أما عن علاقات القبائل بعضها مع بعض، فقد كانت القبائل تغير على بعضها لغرض السيطرة، أو لتحقيق مكاسب، أو للسلب والنهب وكانت الحروب الطاحنة تدوم بينهم سنين عددا لأسباب تافهة، ولكنها النعرة الجاهلية تركب رءوسهم، وتستولى على عقولهم، فيطيش تفكيرهم، وتخف أحلامهم، ويتنادون بالويل والثبور.

وكانت لهم أيام مشهورة عرفت بأيام العرب لما وقع فيها من الهول، ولطول ما دامت فيها الحروب، وذهب فيها النفوس، ومن أشهرها ما يأتى:

١ - حرب داحس والغبراء

وداحس والغبراء فرسان، تراهن صاحباهما، فسبقت الغبراء بمكيدة أغضبت صاحب داحس فنشبت الحرب بين قبيلتيهما – عبس وذبيان ابنى بغيض بن غطفان – ودامت هذه الحرب أربعين عاما.

٢ - حرب البسوس

والبسوس امراءة عجوز من بنى تميم، وهى خالة جساس بن مرة، نزل عليها ضيف جرمى فرعت ناقته مع إبل البسوس فى حمى وائل بن ربيعة المشهور بكليب بغير إذنه، فغضب كليب وقتل الناقة بسهم فى ضرعها.

فاعتبر جساس هذا العمل من كليب إهانة له ولخالته البسوس، وتربص بكليب زوج أخته، وقتله بالناقة فنشبت الحرب بين تغلب قبيلة كليب وبين بكر قبيلة جساس ودامت أربعين سنة أيضا.

٣ - حرب الفجار

وهى أربع فجارات أولها بين كنانة وهوازن ولم يكن فيه قتال يذكر، والثانى: بين قريش وهوازن، وفيه اقتتل الفريقان قتالا يسيرا وأصلح بينهما حرب بن أمية، والثالث: كان بين كنانة وهوازن، ولم يحدث فيه قتال إلا أن الفريقين تهاوشا ثم تداركا الأمر، والرابع، كان بين قريش وكنانة من جهة وبين هوازن من جهة أخرى وسببها أن رجلا من كنانة قتل رجلا من هوازن فشبت الحرب بين الفريقين وهى التى حضرها الرسول صلى الله عليه وسلم مع أعمامه.

هكذا كانت الأوضاع فى جزيرة العرب قبل بعثة الرسول ﷺ، اقتصاد منهار، وأخلاق فاسدة، وسياسة طائشة، وإذا كان لكل عملة وجهان، فقد كان للعرب وجه آخر محمود كالكرم والشجاعة والمروءة والنجدة والصبر والتفانى فى سبيل أشياء معنوية بعكس المجتمع الزراعى الذى يتفانى فى سبيل الأرض والثروة، كما فرضت البيئة الصحراوية أيضا الغيرة الشديدة على المرأة حتى عرفت بعض القبائل (أسد وتميم) بوأد البنات، وإن ساعدت هذه الغيرة على المرأة فى عدم ذوبان المسلمين فى بلاد المهجر بعد الفتوحات الإسلامية، بل وازدياد أعداد المجتمع الإسلامى.

ولما كانت حياة البدوى صراعا دائما بينه وبين بيئته القاسية فقد ترتب على ذلك أن يكون الدين على هامش شعور البدوى وليس فى بؤرة شعوره كإنسان المجتمعات الزراعية، والدليل على عدم اهتمامه بالدين أننا لا نجد أى أثر للدين فى تراث الشعر العربى القديم.

كما أننا لم نسمع عن حدوث حروب بين القبائل العربية وبعضها البعض بسبب الدين، رغم كثرة هذه الحروب.

كانت الديانة السائدة فى جزيرة العرب هى الوثنية، والتى تنحصر فى عبادة الأصنام، ونزق فى التفكير، إذ كيف تستسيغ العقول أن تصنع الأصنام بأيدى الناس ثم تخر لها ساجدة، ولكن ذلك هو الذى كان من سكان الجزيرة سواء كانوا مقلدين فيه غيرهم أم ابتكروه من عند أنفسهم، ولقد سيطرت الوثنية على النفوس سيطرة جعلتها تعتقد فيها الضر والنفع، وتخاف من ذكرها بسوء حتى لا تتعرض لسخطها ونقمتها، فقربوا لها القرابين، وحرقوا لها البخور، واستشاروها فى كل أمر من الأمور.

إن نظرة سطحية من أى عاقل تكشف لصاحبها أن عباد الأوثان هؤلاء ليسوا إلا أوثانا من نوع آخر، ولقد صدق فيهم قول شوقى – رحمه الله:

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا على صنم قــد هام فى صنم

ونحن لا ننكر أنه كانت هناك صحوة عقلية فى بعض الأحيان يثيرها حدث من الأحداث كهذا الذى خرج ليتبرك بالآلهة فرأى ثعلبا يبول على رأسه فقال:

أرب يبول الثعلبــان برأســه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وهذا عربى آخر ذهب بإبله ليباركها عند صنم له اسمه سعد فنفرت الإبل من منظر الصنم وشردت هنا وهناك فقال الرجل:

أتينــا إلــى سعــد ليجمع شملنــا فشتتنا سعد فما نحن مــن سعــد
وهل سعـــد إلا صخــرة بتنوفــة من الأرض لا تدعــو لغى ولا رشد

وكان إلى جوار الوثنية ديانتان أخريان تدين بكل منهما طائفة قليلة من سكان شبه الجزيرة هما: النصرانية فى الجنوب وتتمثل فى سكان نجران واليهودية فى الشمال ويمثلها فريق من سكان يثرب.

وأخيرا فقد فرضت حياة الصحراء والترحال عدم الاهتمام بالتعليم، كما أننا نعلم أن ارتفاع درجة الحرارة يؤدى إلى الإجهاد الحراري، حيث يفقد الإنسان التركيز والانتباه والقدرة على التفكير. ذلك أن ميكنة الجسم الفسيولوجية تؤدى إلى توسيع الأوعية الدموية الطرفية لزيادة كمية العرق حتى لا يكون هناك حرارة داخلية زائدة بالجسم، وهذا يؤدى بدوره إلى زيادة كمية الدم التى تصل إلى المخ مما يؤدى إلى عدم التركيز والإجهاد، كما أن التعليم يحتاج إلى مجتمع مستقر وهذا ما لم يتوفر فى البيئة الصحراوية نظرا لكثرة الترحال سعيا وراء الكلأ، وذلك بعكس البيئة الزراعية التى تحتاج إلى تعليم مواسم الزراعة ومقاومة الآفات وحفظ المحاصيل.

* * *